التثليث والصلب والقيامة والفداء ونظائرها في الفلسفة والأديان السابقة

للأستاذ الدكتور علي عبد الواحد وافي

ترجع أم الأصول التى تقوم عليها المسيحية الحاضرة إلى العقائد الآتية :

١ — ألوهية المسيح ، وقد استقرت هذه العقيدة فى المسيحية بعد مجمع نيقية الأول الذى انعقد بأمر قسطنطين أمبراطور الرومان سنة ٣٢٥ ميلادية ، وذلك أن الفرق المسيحية قبل هذا المجمع لم تكن على رأى واحد فيما يتعلق بشخصية المسيح ، فبعضها كان يقول بألوهيته ، وبعضها كان يقول ببشريته ، وكان على رأس الفرق القائلة ببشريته أتباع أريوس ، وفى سنة ٣٢٥ ميلادية أمر قسطنطين أمبراطور الرومان بأن يعقد مجمع « مسكونى » أى مجمع يضم ممثلين لجميع الكنائس فى العالم المسيحى ، يفصل أمر الخلاف بين أريوس ومعارضيه ، ويتخذ ما ينبغى اتخاذه من قرارات أخرى فى شئون العقيدة والشريعة ، فاجتمع فى نيقية ثمانية وأربعون وألفان من الأساقفة ، ولكنهم لم يستطيعوا الإجماع على رأى ، ويظهر أن قسطنطين كان يجنح للرأى القائل بألوهية المسيح ، فاختار من بين المجتمعين ثمانية عشر وثلثمائة من أشد أنصار هذا المذهب ، وألف منهم مجلساً خاصاً ، وعهد إليهم بأمر الفصل فى هذا الخلاف واتخاذ ما يرون اتخاذه من قرارات أخرى فى الشئون الدينية ، على أن تصبح قراراتهم مذهباً رسمياً يعتنقه جميع المسيحيين فانتهوا إلى عدة قرارات كان من أهمها القرار الخاص بألوهية المسيح وتكفير أريوس وحرمانه وطرده من هيئة الكهنوت : (فقد كان أريوس حينئذ قسيساً بكنيسة الإسكندرية) ، وتكفير كل من يذهب إلى أن المسيح إنسان وحرق جميع الكتب التى تتضمن هذا الرأى وتحريم قراءتها .

وكان من أشد أنصار هذا القرار والداعين إليه بطريرك الإسكندرية

ومنذ ذلك الحين أصبح هذا الرأى عقيدة رسمية للدين المسيحى ، وأخذت المعتقدات الأخرى تنقرض شيئاً فشيئاً تحت تأثير ماكان يتعرض له أصحابها من اضطهاد وعذاب ، حتى انقرضت جميعها فلا توجد أية فرقة مسيحية لا تقول بألوهية المسيح . فهم الآن يعتقدون : أن الابن أو الكلمة أصل إلاهى ، وأن هذا الأصل قد تجسد فى جسم المسيح ، وكل ما بينهم من خلاف فى الوقت

الحاضر فى هذا الصدد يرجع إلى فهم هذا التجسد وما أضافه إلى الطبيعة الإلاهية الأولى، فبعضهم يذهب إلى أن المسيح ليست له إلا طبيعة واحدة ومشيئة واحدة، وهما الطبيعة الإلاهية والمشيئة الإلهية، وأن هذا التجسد لم يضف شيئا إليه؛ وهذا هو رأى ثلاثة كنائس أرثودكسية وهى: الكنيسة المصرية المرقسية، والكنيسة السريانية والكنيسة الأرمنية. وبعضهم يذهب إلى أن المسيح له طبيعتان، طبيعة إلهية، وطبيعة إنسانية، أى اجتمع فيه اللاهوت والناسوت بحسب تعبيرهم، ولكن ليست له إلا مشيئة واحدة وهى المشيئة الإلاهية، لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم إلهى واحد، وهو الابن أو الكلمة؛ وهذا هو رأى كنيسة صغيرة هى كنيسة الموارنة (أتباع يوحنا مارون) بلبنان، أما ما عدا هؤلاء وأولئك من المسيحيين فيذهبون إلى أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين؛ فهو يعمل ما يشبه الإله أن يعمل فى طبيعته، وما يشبه الإنسان أن يعمل فى طبيعته؛ وكل واحدة من الطبيعتين تعمل مع شركة صاحبتها بمشيئتين غير متضادتين.

٢ — ألوهية روح القدس: وقد استقرت هذه العقيدة فى المسيحية بعد المجمع القسطنطيني الأول، وذلك أن الفرق المسيحية قبل هذا المجمع لم تكن على رأى واحد فيما يتعلق بطبيعة روح القدس، فبعضها كان يذهب إلى القول بأنه حادث مخلوق.

وكان من أشهر الفرق التى ذهبت إلى القول بحدوثه أتباع مقدونيوس، الذى كان بطريرك القسطنطينية فى القرن الرابع الميلادى فاجتمع من أجل ذلك فى القسطنطينية سنة ٣٨١م مجمع آخر اشتهر باسم المجمع القسطنطيني الأول، وكان عدد أعضائه مائة وخمسين أسقفا، وانتهى إلى إقرار الرأى القائل بألوهية روح القدس، وكانت كنيسة الاسكندرية من أشد الكنائس تعصباً لهذا الرأى، كما كانت من أشدها تعصباً للرأى القائل بألوهية المسيح.

وكان لأقوال بطريرك الاسكندرية والحجج التى أدلى بها فى هذا المجمع أثر كبير فى توجيهه إلى هذا القرار. ويصف ذلك ابن البطريق (وهو مسيحى من رجال القرن الثالث الهجرى) فيقول: «قال تيموثاوس بطريرك الاسكندرية فى هذا المجمع: ليس روح القدس عندنا بمعنى غير روح الله؛ وليس روح الله شيئا غير حياته؛ فإذا قلنا: إن روح القدس مخلوق، فقد قلنا: إن روح الله مخلوق؛ وإذا قلنا: إن روح الله مخلوق فقد قلنا: إن حياته مخلوقة؛ وإذا قلنا: إن حياته مخلوقة؛ فقد زعمنا أنه غير حى؛ وإذا زعمنا أنه غير حى، فقد كفرنا؛ ومن كفر به وجب عليه اللعن، واتفقوا على لعن مقدونيوس

فلعنوه هو وأشياعه ... وبذلك زادوا فى الأمانة التى وضعها الثلثمائة والثمانية عشر أسقفا الذين اجتمعوا فى نيقية - الإيمان بروح القدس الرب المحيي .

وقد أصبح هذا الرأى عقيدة رسمية للدين المسيحى ، وأخذت المذاهب القائلة بحدوث روح القدس تنقرض شيئا فشيئا حتى انقرضت جميعها ، فلا توجد الآن أية فرقة مسيحية لا تقول بألوهية روح القدس ، وكل ما بينها من خلاف فى الوقت الحاضر فى هذا الصدد يرجع إلى تحديد الأصل الإلاهى الذى انبثق منه روح القدس ، فالكنيسة الغربية الكاثوليكية التى يرأسها باباوات روما تذهب إلى القول بأن : روح القدس منبثق عن الأب والابن معا ، بينما تذهب الكنيسة الشرقية اليونانية التى يرأسها بطاركة القسطنطينية (ويطلق عليها كذلك كنيسة الروم الأرثوذكس) إلى أنه منبثق عن الأب وحده .

٣ — عقيدة التثليث ، وبعد إقرار ألوهية المسيح وألوهية روح القدس أصبح الإله فى المسيحية عبارة عن ثلاثة أقانيم اى أصول ، وهى الآب (أو الأصل) والابن (أو الكلمة) وروح القدس ، والأقنوم الثانى : وهو الابن أو الكلمة هو الذى تجسد فى المسيح من التقاء روح القدس بمريم العذراء ، وهذه الأقانيم قديمة كلها وإن كان بعضها منبثقا عن بعض ، وذلك أن انبثاق بعضها عن بعض ليس انبثاق توالد ، بل انبثاق تلازم كانبثاق الضوء عن الشمس .

٤ — صلب المسيح وقيامته ورفعه : يجمع المسيحيون فى الوقت الحاضر وتجمع أناجيلهم الأربعة المعتمدة لديهم ، على أن المسيح قد تآمر عليه الفريسيون من اليهود والحكام من الرومان ، وساعدهم فى مؤامرتهم هذه يهوذا الإسخريوطى ، الذى كان أحد حوارى المسيح الاثنى عشر ، ثم خان عهده وأرشد هؤلاء إلى مكانه وإلى شخصه ، وأن هذه المؤامرة قد انتهت بالحكم على المسيح بالإعدام صلبا فصلب ثم دفن ، وأنه قام من قبره بعد ثلاثة أيام من دفنه (وهذا هو مايعبر عنه المسيحيون بالقيامة ، ويحتفلون به فى عيد يسمى عيد القيامة) وأنه ظل بعد ذلك مع حوارييه المسيحيين وتلاميذه وأنصاره أربعين يوما يعلمهم ويرشدهم ، ثم رفع إلى السماء وجلس على يمين أبيه ، يصرف شئون العالم ، وأنه سيتولى هو يوم القيامة حساب الناس على ما فعلوه فى الحياة الدنيا .

٥ — عقيدة الفداء أو الخلاص : يجمع المسيحيون فى الوقت الحاضر وتجمع أناجيلهم الأربعة المعتمدة لديهم أن المسيح قد صلب ليكفر بذلك عن الخطيئة الأزلية ، وهى الخطيئة التى ارتكبها آدم إذ عصى ربه وأكل من الشجرة ، فانتقلت الخطيئة بطريق

الوراثة إلى جميع نسله ، وكانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن اقتدام المسيح بدمه ففى صلبه كان الخلاص للآدمين .

* * *

وغنى عن البيان أن هذه العقائد دخيلة فى المسيحية ويظهر أنها قد وفدت إليها من فلسفات قديمة ومن رواسب أديان ومعتقدات كانت سائدة فى البلاد التى انتشرت فيها المسيحية والتى احتك بأهلها المسيحيون ومن أهم الفلسفات والأديان التى تتضمن أشباها ر نظائر لهذه العقائد ويحتمل أن تكون المسيحيه قد تأثرت بها كلها أو بعضها الفلسفة الأفلاطونية والفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، والديانة البرهمية والديانة ، البوذية والديانة اليونانية القديمة .

١ — أما الفلسفة الأفلاطونية . فكانت تذهب بصدد الألوهية إلى أن الله تعالى قد وضع بينه وبين العالم وسيطين يعتبران دونه وخارجين عنه ، وعلى نحو ما داخلين فيه ، أى تتضمنهما ذاته ، صادرين عنه ، دونه فى الكمال ، وبذلك أصبح ممكنا ، عن طريق هذين الوسيطين ، أن يصدر عن الله الواحد الكامل ـ البرىء من التغير ـ هذا العالم الكثير الناقص المتغير ، وأول هذين الوسيطين العقل وثانيهما الروح الإلاهى . وبذلك أصبح الإله فى نظر أفلاطون ثلاثة أصول أو أقانيم : أولها : هو مصدر كل كمال ويحوى فى وحدته كل الكمالات ، وهو يقابل مايدعوه المسيحيون الآب ؛ والثانى : هو العقل : وهو يقابل ما يدعوه المسيحيون الابن أو الكلمة ؛ والثالث : هو الروح الإلهى : وهو ما يدعوه المسيحيون روح القدس .

فالتشابه ، بل التوافق ، واضح بين أقانيم أفلاطون والأقانيم المسيحية فى طبيعتها ، بل فى أسمائها نفسها . وكل ما بينهما من فرق ينحصر فى أن أقانيم أفلاطون ليست فى نظره سواء فى الجوهر والرتبة ؛ بينما هى متساوية عند المسيحيين ؛ فالابن الذى يتولد من الآب لا يمكن فى نظرهم أن يكون أدنى كمالا منه ، وإلا صار من طبيعة الكامل أن يصدر اضطرارا عنه غير الكامل ، وهذا حط من رتبته ، وكذلك روح القدس فهو عندهم مساو للآب والابن . ومعروف أن أفلاطون قد ظهر قبل المسيح بأكثر من أربعة قرون (٤٢٩ - ٣٤٧ قبل الميلاد) ، وأن نظريته هذه كانت سائدة لدى اليونان والرومان الذين انتشر بينهم الدين المسيحى . فكأنهم لم يعتنقوا هذا الدين إلا بعد أن طوعوه لتفكيرهم وصبغوه بألوان فلسفاتهم .

٢ — الفلسفة الأفلاطونية الحديثة :

وذلك أن أفلوطين (٢٠٥ - ٢٧٠ م) زعيم مدرسة الإسكندرية ، وهى المدرسة التى تنسب إليها الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، كان يرى فيما يتعلق بالكون ومنشئه أن الله هو منشئ الأشياء لا يتصف بوصف من

أوصاف الحوادث ، فليس بجوهر ولا عرض ، وليس فكراً كفكرنا ، ولا إرادة كإرادتنا ، يتصف بكل كمال يليق به ، ويفيض على كل الأشياء نعمة الوجود ، ولا يحتاج هو إلى موجد ؛ وأن أول شيء صدر عن هذا المنشئ هو العقل ، وقد صدر عنه كأنه يتولد منه ، ولهذا العقل قوة الإنتاج ، ولكن ليس كمن يولد عنه ؛ ومن العقل تنبثق الروح التي هي وحدة الأرواح ، وعن هذا الثالوث يصدر كل شيء ، ومنه يتولد كل شيء .

فوجه الشبه واضح كل الوضوح بين هذا المذهب من جهة وعقيدة التثليث التي استقرت عليها المسيحية من جهة أخرى .

وإذا لاحظنا أن هذا المذهب كان منتشراً ومعروفاً قبل مجمع نيقية بأمد طويل ، وأنه كان المذهب الفلسفي لمدرسة الإسكندرية ، وأن بطريارك الإسكندرية الذي نشأ في البيئة التي ساد فيها هذا المذهب كان من أكبر المدافعين عن عقيدة التثليث في مجمع نيقية وفي المجمع القسطنطيني الأول كما تقدم بيان ذلك ، إذا لاحظنا هذا كله ترجح الاحتمال الذي ذكرناه : وهو أنه يظهر أن العقيدة المسيحية الطارئة قد نشأت عن تأثر بالفلسفة الأفلاطونية الحديثة .

٣ — الديانة البرهمية في أوضاعها الأخيرة : وذلك أن الديانة البرهمية قد استقرت أوضاعها في آخر الأمر على الاعتقاد بتثليث الآلهة وصلب الإله وتقديم نفسه ذبيحة لتخليص الإنسانية من خطاياها ، أي على العقائد نفسها التي استقر عليها الدين المسيحي ، غير أن ثالوثها يختلف عن ثالوث المسيحيين في نشأة كل أقنوم من أقانيمه وعمله وصفاته ؛ ونظريتها في الخلاص والفداء تختلف كذلك بعض الاختلاف عن نظرية المسيحيين .

وذلك أنها تقرر أن الإله براهما كان قبل الوجود ، وأنه خلق العالم وسمى نفسه الخالق ثم انبثق الإله سيفا ، وهو الإله المدمر الموكل بالخراب والفناء ، ولو ترك هذا الإله وشأنه لفنيت السماوات والأرض ومن فيهن . ولهذا انبثق من براهما إله ثالث حافظ مجدد هو الإله فيشنو أو كريشنا . وهذا الإله الأخير قد خلص بني الإنسان بتقديم نفسه للصليب فداء عنهم . ومن ثم يصورونه مصلوباً مثقوب اليدين والرجلين ، وعلى قميصه صورة قلب إنسان معلق

فوجوه الشبه واضحة كل الوضوح بين هذه العقائد ، وما استقر عليه الدين المسيحي . فإذا لاحظنا أن البرهمية قد انتشرت في بلاد الهند وغيرها قبل ظهور المسيحية بنحو خمسة عشر قرناً ، وأن عقائدها قد تركت آثاراً واضحة في كثير من الأديان والنحل اللاحقة لها في مختلف أرجاء العالم ، ترجح ما ذكرناه من احتمال تأثر المسيحية الطارئة في عقائد التثليث والصلب والفداء بالدين البرهمي القديم .

٤ — الديانة البوذية فى أوضاعها الأخيرة : وذلك أن الديانة البوذية قد استقرت كذلك فى آخر الأمر على الاعتقاد بألوهية بوذا ، وأنه الابن الوحيد ، وأنه تجسد فى الناسوت وقدم نفسه ذبيحة ليكفر عن ذنوب البشر ، ومن ثم يسمونه : المسيح والمخلص والابن.

ولا يخفى ما بين هذه العقائد ونظائرها فى المسيحية من تطابق يكاد يكون كاملا . وهذا يرجح احتمال تأثر المسيحية الطارئة فى عقائد الابن والصلب والخلاص بالديانة البوذية التى ظهرت قبلها بنحو خمسة قرون .

٥ — الديانة اليونانية القديمة : تزعم الأساطير اليونانية أن الإله پروميثية (پروميثيوس) هو إله النار وخالق الإنسان وحاميه ومؤسس حضارته وأنه صلب فى سبيله وذلك أنه لما طرده رئيس الإلهة جوبيتير من السماء وهبط إلى الأرض وقف حياته على العناية ببنى الإنسان ، فعدل صورهم ، وأصلح حواسهم ، ووهبهم العقل والتفكير وعلمهم مالم يكونوا يعلمون . ورأى أن النار تعوزهم فاختلسها من السماء وأهداها لهم ؛ فأصبحت حظاً مشاعا بينهم وبين الآلهة ، وكانت مصدر حضارتهم ، وقد أثارت فعلته هذه نقمة جوبيتير فصلبه على صخرة فى جبال القوقاز . ولكن پروميثيه — وهو الإله قد كتب له الخلود — لم يكن الصلب بمستطيع إهلاكه . فلم يسع جوبيتير إلا أن يفكر فى عذاب يلازمه أبد الآبدين . ووكل تنفيذ ذلك إلى ابنه هيفيستوس وإلى نسر من النسور الجارحة . أما هيفيستوس فقد كلف عمل قطع محماة من الحديد يغرسها الفينة بعد الفينة فى پروميثيه . وأما النسر فقد كلف أن ينقض على پروميثيه فيمزق أحشاءه بمخالبه ، ينهش كبده ؛ فإذا ما بدل كبدا وأحشاء أخرى عاد إليه النسر ضحى اليوم التالى فكرر فعلته معه ... وهكذا دواليك حتى قيض له الإله هيركول (هرقل) فكانت قيامته ونجاته على يديه .

ولا يخفى ما بين هذه الأسطورة وأسطورة صلب المسيح من اتفاق فى كثير من العناصر . فجبل القوقاز الذى صلب فيه پروميثيه يقابل جلجثه (أو الكالفير) الذى تقول أناجيلهم : أن المسيح قد صلب فيه ؛ وصلب پروميثية فى سبيل بنى الإنسان يقابله ما يقول المسيحيون من صلب المسيح لتخلص بنى آدم من الخطيئة الأزلية ... الخ - وقد حاول الفلاسفة من آباء الكنيسة أن يبرروا هذا التشابه العجيب بين أسطورة كانت رائدة فى عقائد اليونان قبل المسيحية بعدة قرون وما يقولونه فى صدد المسيح ، فذهبوا إلى أن أسطورة پروميثيه ليست إلا مظهرا من إرهاصات المسيح وتبشيرا بمجيء المخلص للعالم ألهمت به الوثنية اليونانية إلهاما .

دكتور على عبد الواحد وافى